مكتبة الفنون

الفنان التونسي رفيق الكامل.. من التجريدية إلى الكولاج

تاريخ النشر: 22/02/2016

محمد مهدي حميدة

عبر نص مكثف كان قد كتبه الفنان التشكيلي زبير الأصرم تسطع شخصية الفنان التونسي الكبير (رفيق الكامل) المولع في فترة شبابه بالنموذج الغربي في الفن، ويصبح عالمه الفني في مراحل التكون الأول بتونس ثم التعلم الغربي والنضج الفني واضحاً جلياً وملموساً بالقدر الذي يمكن معه تبين موقع هذا الفنان المتميز ضمن الحراك التشكيلي التونسي الحديث والوقوف كذلك على فرادة مشروعه الإبداعي الرصين، الذي مر خلاله بمرحلة باريسية تعتبر هي نقطة التحول الفارق والاكتشاف العميق لذاته الإبداعية وإمكاناته الفنية حيث أمضى في باريس أربع سنوات التحق خلالها بورشة «ديبيار» متفاعلاً آنذاك مع أبرز التيارات العالمية السائدة في نهاية ستينات القرن الماضي، وكان قد التحق بتلك الورشة الفنية الشهيرة في باريس خلال العام 1967، مواجهاً لكل تبعات أزمة الإبداع وتساؤلاته ومتحدياً للمسطح التصويري الأبيض، ذلك الذي يدفع الفنان الباحث عن هويته وعالمه الخاص للتفكر والعمل بشكل دؤوب في سبيله لطرح تصوراته الجديدة وبلوغه مرحلة ما من مراحل التطور والابتكار والأداء المغاير وهي المرحلة التي قد تعمل وتسهم بشكل ما في تموضعه ضمن التيارات الفنية المحيطة دون أن ينفصل عنها أو يتقهقر في مسيره عن اللحاق بها وتدبرها.

يحمل الكتاب اسم الفنان (رفيق الكامل) كعنوان له، فيما يتصدره النص المشار إليه سابقاً للفنان الأصرم، والذي يبين فيه أن الكامل في بداياته بباريس قد انحاز لإبداع الفنان الإسباني الشهير بابلو بيكاسو وشغف به وبإنتاجه الغزير المتنوع حد أنه قد اعتبره بمثابة مرجع فني رئيسي، لكن دون أن يسقط - مع تلك القناعة الكاملة والتامة - في هوة التقليد لأعماله أو لأي منجز آخر من منجزاته العديدة ذائعة الصيت والجديدة، فيكون من شأن ذلك التقليد أن يفسد عليه عالمه الخاص ويشوه من شخصيته الإبداعية ويحوله ربما لمجرد تابع أو ناسخ يفتقر لمزية الإبداع ولمعنى الفرادة، وذلك قبل أن يتجه في عمله بعد وقت قصير إلى التجريد الفني بعد اكتشافه لعالمه الخاص وقيامه بالتدريس في مدرسة الفنون الجميلة بداية من العام 1971، وتأسيسه لصالة عرض وبحوث تحت مسمى «ارتسام» في العام 1973، وأسهم في أنشطتها الفنانون محمود السهيلي ورضا بن عبدالله والطاهر مميتة وغيرهم من الفنانين الحريصين على تقديم مقترحات فنية جديدة.

وكان أن غادر رفيق الكامل التجريد أيضاً وذلك بعد عدة سنوات قضاها مخلصاً لتجريداته الخالصة، ليبدع في فن التلصيق (الكولاج) مستفيداً من تلك التقنية الذهنية الملموسة القادرة على اكتشاف أسرار الشكل وعلاقته بالفضاءات العامة المحيطة، مع القدرة الكبيرة على إخضاع كافة الإمكانات الكامنة خلال العمل والممارسة بتلك الطريقة ذات الطبيعة اللامحدودة فيما يرتبط منها بالألوان والتكوينات والحلول التي من شأنها أن تدرب الفنان على إعمال التفكر وبلوغ الابتكار والخوض في غمار النسج الإبداعي الدال والمعبر.

وفي نصه يرى الكاتب والتشكيلي زبير الأصرم أن عالم رفيق الكامل إنما يحفل في أساسه بالفضاءات والأنوار وهما أساس القاعدة التي ينطلق منها في بناء مشروعه الفني على وجه العموم.

ضم الكتاب إلى جانب النص الموجز والمكثف للفنان الأصرم مجموعة كبيرة مختارة من لوحات التشكيلي رفيق الكامل، والتي أبدعها بواسطة تقنيات وخامات متنوعة تتصدرها ألوان الأكريليك على القماش والأحبار على الورق لتعبر عن مجموعة كبيرة من الموضوعات المستلهمة من واقع الحياة اليومية بما تشمله من شخوص إنسانية وأطفال وأماكن وحتى أزمنة وحالات مناخية، وهو ما يظهر واضحاً في مسمياته لبعض من هذه اللوحات المنشورة في ثنايا الكتاب ومنها: طفولة، استراحة، قيلولة، زوبعة، عدو، ضحك، رسم امرأة، ظلال، المدخل، الياسمين، اللوحة السوداء.

كما يعتقد الأصرم أن رفيق الكامل ربما قد سعى وهو يغادر مؤقتاً ممارسته التجريدية ليتجه نحو اللوحة القريبة من ذهنية الجمهور وفهمهم إلى استكمال بحثه التجريدي بالتطبيق على مشاهد الواقع التي تحمل هي أيضاً التجريد في طياتها وتحتاج لبحث قادر على تحري وجود ذلك التجريد الذائب ضمن صور مباشرة تمنح الواقع طبيعته الشكلية المباشرة والمتداولة.

ولعل لوحاته المنشورة في هذا الكتاب والمرسومة خلال الثمانينات والتسعينات إنما تؤكد إفادة الفنان من تقنية التلصيق في وقوفه على تحليل مساحات الأشكال البشرية والمكانية مستعيناً بضربات فرشاة ذات طبيعة حرة في الأغلب وتقترب في توزيعها وتقسيماتها من روح فن التلصيق الذي تتجاور خلاله القطع والمسطحات لتنسج الأشكال وتحقق الأجواء العمومية خلال اللوحات.